ترجمات | قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية | 08 أغسطس 2018

محاورة جـون سيـرل
أو حول فيتجنشتين



مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
www.mominoun.com للدراسات والأبحاث

ترجمة: عبد المجيد سعيد

محاورة جون سيرل[1]
أو حول فيتجنشتين

ترجمة: **عبد المجيد سعيد**

1– هذه المحاورة ترجمة لـ:
Magee, B. (1987). Dialogue 15 WITTGENSTEIN. In B. Magee, The Great Philosophers: An Introduction to Western Philosophy (pp. 321-347). OXFORD UNIVERSITY PRESS.

مقدمة[1]:

براين ماجي (Magee)[2]: في مجال الفلسفة، كما هو الحال في معظم المجالات الأخرى، يُعد تقريظ الأحياء أكثر إثارة للجدل من تقريظ الأموات؛ فلو استفتيتَ أساتذة الفلسفة حول العالم اليوم: «من أفضل فيلسوف حي؟»، فيقينا لن يُجمعوا على مرشح واحد. ولهذا، فحري بقائمتنا لما يسمى بـ «الفلاسفة العظماء» أن تُختتم بآخر المُجمَع حولهم من الراحلين، وهو فيتجنشتين بالنسبة إلينا اليوم.

ولد لودفيغ فيتجنشتين (Ludwig Wittgenstein) في فيينا سنة 1889. كان والده أغنى أقطاب صناعة الصلب في النمسا، وقد ورث عنه ثروة، كان مولعا بالآلات منذ نعومة أظفاره، وقد رُكز في دراسته بقوة على الرياضيات والفيزياء والهندسة. بعد دراسة الهندسة الميكانيكية في برلين، قضى ثلاث سنوات في جامعة مانشستر طالبا للدراسات العليا في الملاحة الجوية. في أثناء هذه المدة أصبح مشغولا بالأسئلة الكبرى المتعلقة بطبيعة الرياضيات التي كان يستعملها. وقد ألهمه كتاب برتراند راسل: **مبادئ الرياضيات** التخلي عن الهندسة والتوجه إلى جامعة كامبردج لدراسة الفلسفة والرياضيات، وقد تحقق له ذلك على يد راسل نفسه، وسرعان ما تعلم كل ما يمكن لراسل أن يعلمه إياه. بعد ذلك، اعتزل أستاذه ليفكر بأصالة ذاتية، فألف كتابه الأول: **رسالة منطقية فلسفية**[3] (Tractatus Logico-Philosophicus) الذي نشر في 1921 - ويشار إليه عادة باسم **الرسالة** (Tractatus). حسِب فيتجنشتين، عن حسن نية، أنه في هذا الكتاب قد حل المشكلات الأساسية في الفلسفة، فما كان منه إلا أن أعرض عنها واشتغل بأشياء أخرى[4]. في أثناء ذلك ملأت **الرسالة** الدنيا وشغلت الناس: ففي كامبردج شجعت على إدخال مزيد من التطورات على علم المنطق، أما في بقية أوربا فقد أصبحت أكثر النصوص إثارة للإعجاب بين أعضاء المجموعة الشهيرة: الوضعية المنطقية المعروفة باسم «حلْقة فيينا»(The Vienna Circle). إلا أن فيتجنشتين نفسه قد شعر فيما بعد أن **الرسالة** كانت خاطئة على نحو جوهري، فما كان منه إلا أن آبَ إلى الفلسفة في نهاية المطاف؛ فقد عاد إلى كامبردج سنة 1929 حيث أصبح أستاذا للفلسفة بعدها بعشر سنوات. في أثناء هذه المرحلة الثانية من حضوره في كامبردج طور مقاربة فلسفية جديدة كلية ومباينة تماما لتلك التي طورها في حضوره الأول، لكن تأثير هذه المقاربة الجديدة لم ينتشر في أثناء حياته إلا بواسطة الاتصال الشخصي[5]، فباستثناء

1 العناوين (باستثناء كلمتي: "مقدمة" و"المناقشة") والإحالات الواردة في المحاورة جميعها من وضع المترجم.

2 بريان إدغار ماجي (Bryan Edgar Magee) (1930) فيلسوف ومقدم برامج بريطاني، اشتهر بلقاءاته التلفزيونية في هيئة الإذاعة البريطانية (BBC) الهادفة إلى تبسيط الفلسفة وتقديمها للجماهير.

3 ترجمه إلى العربية عزمي إسلام ونشر بتاريخ 1968 عن المكتبة الأنجلو مصرية.

4 تنقل بين عدد من المهن، فقد عمل معلم أطفال في النمسا، وبستانيا ومهندسا معماريا.

5 عن طريق طلبته وزملائه الذين جمعوا محاضراته ورسائله ونشروها بعد وفاته. ومن أشهر الناشرين والمحققين لأعمال فيتجنشتين نذكر طالبته إليزابيث أنسكومب (Elizabeth Anscombe).

مقالة واحدة موجزة جدا[6] نشرها بنفسه، لم يُنشر له أي عمل قبل وفاته سنة 1951. لكن بعد سنتين من وفاته؛ أي في سنة 1953، طُبع كتابه **تحقيقات فلسفية**[7] (Philosophical Investigations)، وأثبت أنه الأكثر تأثيرا، من بين كل الأعمال الفلسفية التي ظهرت في العالم الناطق بالإنجليزية، منذ الحرب العالمية الثانية.

إذن، نحن هنا أمام ظاهرة جديرة بالاهتمام: فيلسوف عبقري، يبدع فلسفيتين على طرفي نقيض في مراحل مختلفة من حياته، كل واحدة منهما أثرت في جيل كامل. الفلسفتان، مع عدم توافقهما، تشتركان في سمات أساسية: كلاهما ركز على دور اللغة في حياة الإنسان وتفكيره، واهتم أساسا بوضع الحدود الفاصلة بين الاستعمال الصحيح للغة وغير الصحيح ـ أو كما عبر عن ذلك أحدهم مرة بالقول، كلاهما حاول رسم خطوط فاصلة بين نهاية المعنى (Sense) وبداية الهَدر(Nonsense).

أرى أن كتابا فيتجنشتين الأوليان الأساسيان متفاوتا التأثير؛ فمع أن كتاب **الرسالة** لا يزال مقروءا على نحو هائل، فإن من حوَّل فيتجنشتين إلى شخصية ثقافية عالمية مؤثرة منذ وفاته هو كتابه المتأخر: **تحقيقات فلسفية**، ويجب أن نُقر بهذا، وهو يمارس الآن تأثيرا نشطا في العديد من المجالات خارج حقل الفلسفة.

لمناقشة أعمال فيتجنشتين دعوت معي اليوم جون سيرل[8] (John Searle)، أستاذ الفلسفة بجامعة كاليفورنيا في بيركلي.

---

6 نشر المقال تحت عنوان: "Some remarks on logical form" سنة 1929 من طرف مجلة Aristotelian Society. يمكن الاطلاع عليه من خلال الموقع التالي: https://www.jstor.org/stable/4106481?seq=1#page_scan_tab_contents

7 ترجمه إلى العربية عبد الرزاق بنور وصدر عن المنظمة العربية للترجمة سنة 2007.

8 جون روجرز سيرل (John Rogers Searle) (1932) فيلسوف وأستاذ جامعي أمريكي معاصر، ساهم بقوة في إغناء نظرية أفعال الكلام والذهن والقصدية.

المناقشة

ماغي: بما أن فيتجنشتين قد تنكر لفلسفته المبكرة، وبما أن فلسفته المتأخرة ـ عموماـ هي الأعظم تأثيرا اليوم، فلا أرى داع لأن نخصص حيزا كبيرا من وقتنا لأعماله المبكرة؛ فما الذي نحتاج فعلا إلى معرفته عن هذه الفلسفة المبكرة؟

فيتجنشتين المبكر: اللغة بوصفها صورة لحالات الوقائع

سيرل (Searle): أرى أن مفتاح فهم **الرسالة** هو النظرية التصويرية في المعنى (The Picture Theory of Meaning)؛ فقد آمن فيتجنشتين بأنه إذا كانت اللغة تمثيلا للواقع، وكانت الجُمل تمثيلا لحالات الوقائع (States of affairs)، فلا بد من وجود شيء مشترك بين الجملة وحالة الوقائع. ولمّا كانت الجملة وحالة الوقائع التي تمثلها تمتلكان بنية مشتركة وجوبا، فالجملة بهذا المعنى هي بمنزلة صورة لواقعة محتملة، فكما أن عناصر الصورة تماثل (Corresponds) أشياء موجودة في العالم، وتنسيق (Arrangement) هذه العناصر في الصورة يكون مماثلا لتنسيق محتمل لأشياء موجودة في الواقع؛ فإن الجُمل تتضمن أسماء تماثل أشياء موجودة في العالم؛ وتنسيق الأسماء في الجملة يماثل تنسيقا محتملا للأشياء الموجودة في العالم.

هذه الفكرة، التي تنص على أن الجُمل في حقيقتها هي شكل مقنَّع من الصورة، أمدت فيتجنشتين بدعامة ميتافيزيقية جديرة بالاهتمام؛ فقد مكنته من قراءة بنية الواقع انطلاقا من بنية اللغة؛ لأن بنية الواقع يجب أن تحدد بنية اللغة، فلو لم تكن اللغة تعكس [مرآة] الواقع، على نحو ما، لاستحال على الجملة أن تكون ذات معنى.

ماغي: النقطة الجوهرية هنا هي أننا نستطيع الكلام عن الواقع ليس فقط، لأن الأسماء تَدُل(Denote)، لكن كذلك لأن الجُمل تصوِر؛ فلكي يعكس الخطابُ العالمَ لا يكفي وجود كلمات تقوم مقام الأشياء، إذ لا بد كذلك من الربط بين هذه الكلمات بعلاقات خاصة، لكي نستطيع أن نعبر عن الكيفية التي تكون عليها الأشياء. بهذا يكون عكسُ بنية من طرف الأخرى [بنية اللغة وبنية العالم] هو المفتاح الحقيقي لإمكانية قيام خطاب له معنى (Meaningful) حول العالم في اللغة.

لكن، هذه الواقعة نفسها يمكن قراءتها في الاتجاه المقابل، إذا جاز التعبير، فما دمنا نعلم أن الخطاب الذي له معنى لا يكون ممكنا إلا إذا عكست بنيةُ اللغة بنيةَ العالم، وما دمنا نعلم أن الخطاب الذي له معنى ممكن، فنحن في وضع يسمح لنا بتعرُّف بنية العالم انطلاقا من تحليل بنية اللغة.

سيرل: صحيح؛ كل جملة لها معنى تماثل واقعة محتملة، وكل جملة صادقة تماثل واقعة متحققة فعليا. إذن، يمكننا أن نتعلم عن بنية الواقع انطلاقا من الجمل، سواء أكانت هذه الأخيرة صادقة أم كاذبة؛ لأن مجرد كون الجملة ذات معنى يوجب أن تُماثل حالة محتملة للوقائع في العالم.

لكن، من المهم أن نؤكد أن فيتجنشتين لم يكن يتحدث عن السمات الظاهرية للجمل في اللغة العادية (Ordinary Language)، فهو لم يكن يتحدث عن البنية المرئية أو المسموعة للجمل التي نستعملها الآن في تحاورنا، فقد أعتقدَ أن هذه السمات السطحية المرئية والمسموعة للغة العادية تَحجب في الواقع البنية التحتية المنطقية للجملة. فإذا حلّلنا جملا عادية تحليلا منطقيا، للكشف عن الكيفية التي تكون بها هذه الجمل ذات معنى، فسنبلغ الجمل القاعدية (Ground Floor)، التي هي البُنى التحتية الحاملة للمعنى والمحجوبة من طرف الجُمل العادية. سنبلغ ما يسميه بـ «الجُمل الأولية[9]» (The Elementary Sentences)، وحينئذ سنقف على العلاقة التصويرية الصريحة بين بنية الجملة وبنية الواقعة.

ورث فيتجنشتين عن فريغه[10] (Frege) فكرة أن الوحدة الأساسية في المعنى هي الجملة وليست الكلمة؛ فهذه الأخيرة مجرد دوال (Functions)، لا تمتلك معنى إلا في سياق جملة ما. وكما اقترحتَ سابقا، فهذا بسبب أن تَعالُق (Concatenation) الكلمات في الجملة نفسها هو ما يجعلها قادرة على تصوير بنية الوقائع في العالم.

ماغي: لن يواجه الناس، فيما أظن، صعوبة فورية كبيرة في فهم مسألة عكس الجملة للواقعة، عندما تكون تلك الواقعة موجودة. لكن، كيف سيكون رد فعلهم عندما أؤكد أن تلك الواقعة غير موجودة؟ فلو قلتُ مثلا: «هناك قطة على السجاد»، طيب، فسيرى الناس أن هذه الجملة استطاعت تصوير حالة واقعة فعلية (أو واقعة محتملة)؛ لكن، ماذا لوقلتُ: «لا توجد قطة على السجاد؟» كلنا نعلم أن هذه الجملة لها معنى، لكن ما هي حالة الوقائع التي يمكن أن تقولها لتصوير ـ صورة؟ ماذا عسى صورة حقيقية لعدم وجود قطة على السجاد أن تشبه؟ هل ستختلف عن صورة عدم وجود كلب؟

سيرل: يرى فيتجنشتين أن حروفا مثل: «لا» و«و» و«أو» و«إذا»، المسماة بالثوابت المنطقية (Logical Constants)، ليست في الواقع جزءا من صورة العلاقة. يقول: «فكرتي الأساسية هي أن الثوابت المنطقية لا تُمثِل». فقد عَدَّ هذه الكلمات المنطقية مجرد طرق لإلصاق الصور معا، لكن دون أن تكون هي نفسها جزءا من أية صورة. وهذا ليس بمستبعد إن فكرت فيه. فمثلا، عبر الشارع من منزلي في بيركلي يوجد منتزه صغير، عُلقت فيه صورة كلب مرسوم فوقها خط أحمر. الآن، لاحظ هذا، نحن نفهم بيسر الخط الأحمر فهما

9 وهي ما يدعوه راسل بالعبارات الدرية.

10 غوتلوب فريغة (Gottlob Frege) (1848-1925). عالم رياضيات ومنطق ألماني، يعد وحدا من أشهر وأهم علماء المنطق في العصر الحديث، يرجع له الفضل في تطوير المنطق الرياضي واللغة الصناعية وحساب القضايا.

مختلفا عن فهمنا صورة الكلب. نحن نعلم، أنه لا يُفترض في الصورة أن تصف كلابا تحمل خطا أحمرا مرسومة فوقها. فالخط هو بالأحرى مجرد علامة نفي، والعلامة كلها تعني: "الكلاب ممنوعة»[11] (No Dogs). إذن، فالعلامة في المنتزه هي في الواقع مثال على نوع الصور التي يقصدها فيتجنشتين، على الأقل بمعنى أن الرمز «لا» استُعمل للعمل على الصورة، لكن دون أن يكون هو نفسه جزءاً منها.

ماغي: إذن، يمكننا توسيع صياغتنا الأولى بالقول، انطلاقا من رؤية فيتجنشتين الشاب، إن الخطاب الذي له معنى حول العالم يمكن تحليله إلى جمل أولية تُصوِر حالات محتملة للوقائع، وهذه الجُمل الأولية هي إما: ترتبط معا، أو يُفترض فيها إفادة احتمالات، أو تواجه بعضها بعضا بصفتها بدائل، أو تنفي، أو تقوم بغير هذا من الوظائف، بواسطة ما يسمى بالثوابت المنطقية، التي لا تعد هي نفسها تصويرية.

سيرل: نعم، صحيح.

ماغي: في تقديمي لمحاورتنا هذه، قلتُ إن فيتجنشتين كان مهتما خلال مساره المهني بميز (Demarcate) الكلام الذي له معنى من ذاك الخالي منه. كيف رسم هذا الحد الفاصل في فلسفته المبكرة؟

سيرل: في فلسفته المبكرة؛ أي في **الرسالة**، اعتقد فيتجنشتين أن اللغة الوحيدة التي لها معنى، بالمعنى الدقيق للكلمة، هي المعبرة عن وقائع (Fact stating language). الآن، خلافا للوضعيين المناطقة، لم يشرح فيتجنشتين بهذه النتيجة صدرا، أو يمجدها بوصفها نتيجة رائعة. فقد وجد أن ما يترتب عنها هو أن الأشياء المهمة حقا في الحياة لا يمكن قولها أو التصريح بها. اعتقَدَ أن الأخلاق والدين والجماليات، على سبيل المثال، تقع كلها في مجال ما لا يمكن قوله. وقد قال مرة عن **الرسالة**، إن القسم المهم منها حقا هو ذلك الذي خُلِّف ولا حضور له كلية بين دفتيها. لكن، وفقا للمعنى المعبَّر عنه في **الرسالة**، فإن هناك حدودا دقيقة بين اللغة التي لها معنى أو المعبرة عن واقعة، وبين بقية أقسام اللغة التي لا تُستعمل للتعبير عن وضعية متحققة أو محتملة للوقائع في العالم، والتي تعد بذلك، صراحة، مجرد هَذْر. هذه الأقسام من اللغة تحاول قول شيء عن الأسئلة المهمة في الحياة، لكنها تخفق، لأنها تحاول قول ما لا يمكن قوله.

ماغي: هذا يتماشى مع الرؤية الاعتيادية التي عادة ما يحملها عامة الناس من غير الفلاسفة والقاضية بأن موضوعات مثل الأخلاق والدين والفن، على رغم أهميتها الأساسية في الحياة، فإن اللغة قاصرة تماما عن قول ما تحمله هذه الموضوعات، أو تدور حوله، أو حتى تحديد ماهيته.

11 الترجمة الحرفية المتضمنة للثابت المنطقي "لا"، هي: "الكلاب لا".

سيرل: هي موضوعات أساسية، لكن جهودنا لمناقشتها لا معنى لها، على الأقل وفقا لنظرية المعنى كما تقدمها **الرسالة**، والسبب في هذا لا يكمن ببساطة في أننا لا نوفيها حقها، بل إن محاولاتنا لإيفائها حقها هي نفسها بدون معنى؛ فلا يمكننا إطلاقا قول أي شيء له معنى حولها.

ماغي: لقد قلتَ إن مفتاح فهم فيتجنشتين المبكر هو نظرية الصورة في المعنى، كيف تخلى فيتجنشتين المتأخر عن هذه النظرية؟

فيتجنشتين المتأخر: اللغة بوصفها أداة

سيرل: على الرغم من أن أفكار فيتجنشتين معقدة جدا، في الواقع، هناك جواب يسير عن هذا السؤال. في عمله المتأخر هجر نظرية الصورة في المعنى لمصلحة تصور الاستعمال أو الأداة في المعنى (Use or Tool Conception of Meaning)؛ فهو يدعونا للتفكير في الكلمات بوصفها أدوات، وفي الجُمل بوصفها مُعَدّات (Apparatus). ولبلوغ المعنى الصحيح للغة نحتاج ببساطة إلى البحث في كيفية عملها في الحياة الحقيقية، إلى النظر إلى ما يفعله الناس بالكلمات. يقول: «في كثير من الحالات ـ وإن لم يكن فيها جميعا ـ حيث نوظف كلمة "معنى" فإنه يمكن أن تعرَّف كالآتي: معنى كلمة ما يحدده ما تُستعمل له في اللغة».

لقد ترتّب عن أعماله المبكرة عَدُّ بنية العالم الحقيقي هي من تحدد بنية اللغة، لكن، نجد خلاف هذا، بمعنى ما، في أعماله المتأخرة؛ ففي **التحقيقات الفلسفية** يرى أن بنية لغتنا هي من تحدد طريقة تفكيرنا في العالم الحقيقي: فهي تحدد ما نعده شيئا أو شيئين، أو الشيء نفسه، بل تحدد ما نعده شيئا أصلا. فنحن لا نستطيع حتى مناقشة العالم بدون بعض العتاد المفهومي الذي نستعمله لهذا الغرض، وطبعا اللغة هي من توفر هذا العتاد.

هذه الفكرة منحت فيتجنشتين تصورا مختلفا تماما عن دور اللغة في حياتنا. ففي أعماله المبكرة عَدَّ الخطاب المعبر عن وقائع هو وحده من له معنى حقيقة؛ لكن في أعماله المتأخرة، تحول إلى عَدِّ الخطاب المعبر عن وقائع مجرد نوع من بين أنواع أخرى من الخطاب، مجرد نوع من "اللعبة اللغوية» (Language Game)، وتحديدا، هو مضاف إلى عدد غير محدود من الأنواع الأخرى من ألعاب اللغة. في أعماله المتأخرة، نتيجة التشديد على فكرة الاستعمال في اللغة، يسترعي فيتجنشتين انتباهنا باستمرار إلى التنوع والتعددية التي نجدها في استعمالات اللغة.

ماغي: لافت جدا للنظر هذا التحول في الاستعارات الرئيسة من اللغة بوصفها صورة إلى اللغة بوصفها أداة. الآن، من طبيعة الصورة أن تصورِ حالة واحدة مخصوصة للوقائع، لكن من طبيعة الأداة أن تُستعمل في مهام مختلفة. ألم يكن لهذا الجانب من الفرق أهمية كبيرة عند فيتجنشتين؟

الشَبَه الأسري

سيرل: بلى، يبدو فيتجنشتين في **التحقيقات** حريصا دائما على تأكيد قابلية اللغة غير المحدودة للتوسيع، وعلى عدم وجود أي جوهر فرد (Single Essence) يَلزَم كل استعمالات اللغة مجتمعة؛ فلا توجد أية سمة واحدة تتخلل كامل اللغة وتُعَد جوهرها. وبالفعل، فيما يخص كلمات بعينها، لا حاجة لوجود جوهر خاص يشكل تعريفها. وقد رأى فيتجنشتين أن عددا من الكلمات لا تملك إلا «شَبَها أسريا» (Family Resemblance) يحضر في استعمالاتها المتنوعة. وقد ضرب لهذا مثلا بكلمة "لعبة". ويسألنا، ما الذي تتقاسمه كل الألعاب، إذا كان هناك أي شيء تتقاسمه أصلا؟ وهنا، كالعادة، يستمر في التأكيد: لا تركن إلى الظن بأنه يجب أن تملك جميعا شيئا واحدا مشتركا، بل ابحث وانظر ما الذي قد تجده. ثم يقول: إذا استحضرت التنوع الهائل في أنواع الألعاب المختلفة ــ ألعاب الطاولات، الألعاب الأولمبية، ألعاب القمار، ألعاب الكرة وهلم جرا ـ فما ستجده هو أنه لا يوجد أي جوهر فرد للُعب، لا يوجد شيء واحد تشترك فيه الألعاب قاطبة؛ فكل ما هناك هو سلسلة من التشابهات المتقاطعة والمتداخلة. وهذه الظاهرة هي ما يدعوه بـ "الشَبَه الأسري".

ماغي: «لا تكتف بالتسليم، بل فكّر»، دعوة دائمة الأهمية مع فيتجنشتين. إذا رجعنا إلى مثالك، فإن بادئ الرأي أن يقول المرء: «آه، لكن هذا واضح، الألعاب كلها ترفيه وتسلية على نحو ما». لكن بعد ذلك قد يُعترض بالقول: إن كرة القدم الأمريكية، التي يعاني فيها اللاعبون من إصابات مروعة مقابل أموال طائلة، ليست لهوا. لو قلتَ: «حسنا، هي ترفيه على الجمهور»، لن يكون هذا صحيحا؛ لأن أغلب أنواع الألعاب التي تمارس حول العالم قد لا يحضرها أي جمهور، وهل غياب الجمهور عن حضور كرة القدم الأمريكية لا يجعلها لعبة؟ ولو قلتَ: «حسنا، الألعاب كلها تنافسية»، هذا غير صحيح؛ لأن هناك ألعابا يمارسها شخص واحد، كلعبة الصبر[12] أو السولتير. ولو قلتَ: «حسنا، الألعاب كلها ترويح عن النفس، ابتعاد عن جو العمل»، فلن يكون هذا صحيح أيضا؛ لأن آلاف المحترفين يتخذون من الألعاب مصدرا للعيش، وهكذا دواليك.

يتطلب منهج فيتجنشتين سلوك درب شاق يمر عبر كل الأمثلة التي يستطيع المرء التفكير فيها. ومع أن هذا عمل تفصيلي بطبيعته، فهو أيضا استدعاء للمخيلة وللقدرة على التفكير فيما هو غير واضح. وقد أظهر فيتجنشتين نفسه براعة كهذه في ضرب الأمثلة حتى غدا عدد من أمثاله عبارات سائرة في مجال الفلسفة.

إجراء تحليل مطول لمفهوم اللعبة، الذي لم يُتح لنا وقت كاف لإتمامه في هذه المحاورة، كان ليُظهر لنا، على نحو مفاجئ ربما، أنه لا يوجد شيء واحد تشترك فيه الألعاب كلها وتكون بفضله ألعابا؛ فهي تملك سمات معينة تتشاركها مع أنشطة بشرية أخرى لا تعد أو تحصى ــ فهي، على سبيل المثال، تُتعلم من الآخرين

12 نوع من ألعاب الورق.

وتخضع لقواعد– لكن هذه السمات لا تكفي لتصيير شيء ما لعبة. وهذا يعني أنه لا يوجد شيء واحد تعبر عنه كلمة "لعبة".

سيرل: صحيح، قد يسبق إلى الظن أن فيتجنشتين لم يزد على تذكيرنا هنا بقضية واضحة، فما يقوله كله هو مجرد تعبير عن الحس المشترك، وهذا صحيح إلى حد ما. لكن، من المهم أيضا أن نتذكر أنه يحارب تقليدا فلسفيا عتيدا يمتد إلى أرسطو. فهو يحارب، أولا، نظريته المبكرة القائلة إن الكلمات تستمد معانيها من قيامها مقام أشياء؛ وثانيا، يحارب تقليدا أقدم عهدا يقول إن الكلمات تستمد معانيها من الترابط بين أفكار في الذهن؛ وثالثا، يحارب تقليدا يَشرُط اكتساب الكلمة للمعنى بوجود جوهر ما تعبر عنه تلك الكلمة، فوفقا لهذه الرؤية الأخيرة إذا كان باستطاعتنا أن ندعو أشياء كثيرة ألعابا، فذلك لأنها تملك سمة جوهرية تميز اللُعب تشترك فيها جميعا. ولهذا كله، فإن فائدة ملحوظات فيتجنشتين حول اللغة تنبع من الهجوم الجَذري الذي شنه على التقليد الفلسفي القائم قبله.

ماغي: تحدثتَ قبل لحظات عن تطبيق فيتجنشتين لمصطلح «الشَبَه الأسري» على الألعاب. بما أنه يطبق هذا المصطلح على معاني المفاهيم كلها، واستعمله لشرح تصور المعنى في حد ذاته، فإنه يستحق منا مزيدا من الإسهاب في الحديث عنه. عادة، عندما نقول إن هناك تشابهات بارزة بين جميع أفراد أسرة ما، فإننا لا نقصد أن هناك سمة واحدة يشتركون في حملها جميعا – كحمل الدقن نفسه، أو الأنف نفسه – (وإن كان هذا هو واقع الحال في بعض الأسر الاستثنائية)، بل نقصد في الغالب أن كل واحد منهم يبدو أنه يستقي تشكيلة مختلفة من السمات من مصدر مشترك. وكما أسلفتَ، فهناك تنوع في نقط التشابه التي تتقاطع وتتداخل.

يقول فيتجنشتين، إن هذا ينطبق على معاني الكلمات، فمعنى كلمة ما هو حاصل مجموع استعمالاتها الممكنة، لكن دون ما حاجة لوجود شيء واحد يرتبط حصريا بكلمة معينة وفي الوقت نفسه، يكون مشتركا بين جميع استعمالاتها الممكنة؛ لعل في هذا توضيحا لمعنى الشَبَه الأسري.

سيرل: هذا صحيح، لكن ثمة حاجة إلى تقديم توضيحين إضافيين: أولا، هو لا يقول إن هذه الكلمات هي من النوع المشترَك[13] (Ambiguous)، فهو لا يقول إن لكلمة «لعبة» معان مختلفة، على النحو الذي نجده في كلمة «بنك» التي تحتمل معنيين [في اللغة الإنجليزية]: إما ضفة نهر أو بيت تمويل. وإنما يقول إن المعنى الواحد لكلمة «لعبة» يحصل على قوته من الشَبَه الأسري بين الحالات المختلفة، لا من حقيقة وجود جوهر واحد. ثانيا، هو لا يدّعي أن الكلمات كلها في اللغات جميعها هي من هذا النوع، إذ هناك كلمات لها معان

13 الاشتراك هو تعدد المعاني للفظ الواحد. يناظر كلمة "بنك" في اللغة الإنجليزية كلمة "عين" في اللغة العربية التي تدل مثلا على: منبع الماء وحاسة البصر وأهل البلد والجاسوس وطليعة الجيش وسيد القوم...

محددة، كل ما في الأمر هو أنه كان يعتقد أنه من المهم جدا للفلاسفة أن يدركوا مدى فشو ظاهرة الشَبَه الأسري؛ لأن عددا من الكلمات التي تربكنا في الفلسفة هي من هذا القبيل. ففل الأخلاق والجماليات مثلا، ننظر إلى كلمات مثل: «خير» و«جميل»، فنميل إلى الاعتقاد بضرورة وجود سمة جوهرية تشير إليها هذه الكلمات، وبضرورة وجود جوهر للخير أو جوهر للجمال، لكن فيتجنشتين يشدد على نقيض هذا، ويقول: إذا نظرنا إلى الاستعمالات الفعلية لهذه الكلمات، فسنجد فيها علاقات شَبَه أسري متنوعة التقاطعات.

ماغي: هو يقول شيئا من هذا القبيل عن استعمال أنماط كاملة من الخطاب، وليس عن استعمال كلمات مفردة فحسب، أليس كذلك؟ نحن نستعمل اللغة لأغراض متنوعة تنوعا هائلا، نستعملها استعمالات مختلفة لأغراض مختلفة. فإذا كنتُ وإياك نناقش الفلسفة، فنحن نستعمل اللغة استعمالا يختلف عن استعمالانا إياها إذا كنا نتجادل في السياسة، واستعمالا مختلفا مرة أخرى إذا كنا نناقش فِلماً شاهدناه معا بالأمس. إضافة إلى هذا، هناك حديث موسيقي وحديث علمي وحديث ديني وكل ضروب الأنواع المختلفة من الأحاديث الأخرى، وفيها جميعا تميل اللغة إلى أن تُستعمل بطرق مختلفة. إذن، مرة أخرى، يقول فيتجنشتين: «إذا أردتَ حقا أن تفهم معنى كلمة ما، فلا تلتمس تعريفا معجميا، بل أنعم النظر في الطريقة التي تُستعمل بها فعليا في المجال الخاص من الخطاب الذي تعنى بالبحث فيه». هذا النوع من النشاط الذي ينصح به فيتجنشتين هنا هو ما يحيل عليه عنوان كتابه **تحقيقات فلسفية**: فهو دائما نشاط متعين، ودائما تحقيق في الاستعمال الفعلي لكلمة أو مفهوم فعلي في وضع فعلي.

ألعاب اللغة

سيرل: أَصبت؛ أحد شعارات فيتجنشتين المفضلة: «لا تسأل عن المعنى، بل اسأل عن الاستعمال». عند هذه المرحلة من النقاش يقدم استعارة أخرى ـ أحد مصطلحاته التقنية القليلة ـ وهي تصور "لعبة اللغة"؛ فهو يدعونا أن ننظر إلى تكلم اللغة واستعمال الكلمات، انطلاقا من تشبيههما بممارسة الألعاب، ووجه الشبه بينهما هو أن استعمال الكلمات وممارسة الألعاب كلاهما أنشطة إنسانية، إنهما أشياء نفعلها. اعتقدَ فيتجنشتين بوجود سمات مشتركة بين استعمال الكلمات ونشاط ممارسة الألعاب تسوغ استعمال استعارة ألعاب اللغة، وهذه السمات هي: أولا، كلاهما نسَقي، ويتحدد واقعيا بالخضوع لقواعد، (مع أن تصور القاعدة إشكالي عند فيتجنشتين ـ وسنعود لهذا بعد لحظات). فنحن معنيون بالاستعمال السليم للغة؛ إذ لا يمكن أن نعتقد بجواز استعمالها كيفما اتُفق، تماما كما أننا لا نستطيع اعتقاد أن أي شيء يُعد مقبولا في لعبة ما. لكن، في الوقت نفسه، هناك مجال كبير للأريحية، للتأويل؛ فليس كل شيء محدد بقواعد حتمية، سواء في الألعاب أو استعمال الكلمات.

بمجرد أن نتخلى عن فكرة أن المعنى كله هو مسألة كيانات مستبطنة في الذهن، وفكرة أن المعنى هو مسألة كلمات تقوم مقام أشياء في العالم ـ بمجرد أن نرى التشابه بين استعمال الكلمات واستعمال قطع في لعبة مثل الشطرنج ـ سندرك أن معنى الكلمة يُستقى بتمامه من استعمالاتها، كما هو الحال مع «معنى» الشاه في لعبة الشطرنج، فهو مستمد كلية من دوره في اللعبة. إذن، وبالمثل، معنى الكلمات ـ بما فيها الكلمات الفلسفية المربِكة مثل: «خير» و«صدق» و«جميل» و«عدل» ـ مُستمد كلية من دورها في الألعاب اللغوية التي تُلعب بها.

الآن، هناك لمحة أخرى في هذا التشبيه تُعدّ مقلقة لعدد من الفلاسفة التقليديين. ففيتجنشتين يشدد على ألّا نبحث بعد الآن عن أسس ألعاب اللغة، إلا كما نبحث عن أسس ألعاب مثل كرة القدم أو كرة السلة؛ فهي كلها مجرد أنشطة إنسانية، ويجب أن تُبحث لذاتها. فنحن نلعب لعبة لغوية خاصة بخطاب أخلاقي وبخطاب جمالي وبخطاب التعبير عن الوقائع، ولعبة لغوية مع كلمة «علة»، ولعبة أخرى مع تحديد العلاقات الزمانية والمكانية. ويخطئ الفلاسفة إذ يعتقدون بضرورة وجود بعض الأسس أو التسويغات المتعالية (Transcendental Justification) لكل لعبة لغوية. وقد كان فيتجنشتين متحمسا للتشديد على ضرورة عَدّ هذه الألعاب مجرد أنماط من السلوك الإنساني، وعلى أن استعمال الكلمات، من أولها إلى أخرها، معادل لبقية سلوكياتنا. وإذا اعتقدنا أن ألعابنا اللغوية الحاضرة هي وحدها النوع الممكن، فينبغي أن نستحضر إمكانية كوننا مختلفين، أو كون العالم مختلفا، فحينئذ سيكون استعمالنا لهذه الألعاب مختلفا. إن مهمتنا ليست هي إيجاد أساس ما أو تسويغ متعال لألعابنا اللغوية الحاضرة، فكل ما نستطيع قوله: «هذه اللعبة اللغوية تُلعب، وهذه هي الكيفية التي تلعب بها».

ماغي: لابد أن أقول، إنني شخصيا أرى أن التزام فيتجنشتين بمصطلح «لعبة اللغة» كان كارثيا نوعا ما؛ فهو يخلق انطباعا بأن ما يفعله أو ما يتحدث عنه هو تافه على نحو ما، ويغذي ضد الفلسفة نوعا خاصا جدا من التعصب المنتشر خارج حقلها، أي يغذي الفكرة القائلة: إن الفلسفة مجرد لعب بالكلمات، وأن الأمر برمته مجرد لعب، وأن الفلاسفة مجرد مهتمين سطحين باللغة. إنني أسمع مرارا استعمال مصطلح «لعبة لغوية» لِذم الفلسفة من قِبل أناس يقفزون إلى استنتاجات خاطئة حول معنى هذا المصطلح، بل وفي الجامعات أيضا لا يعد هذا القفز نادرا. لكن فيتجنشتين لم يكن يعبر، بحال، عن فكرة من قبيل أن كلامنا مجرد لهو ولَعِب. فما كان يفعله هو عقد تشبيه رصين وجاد بين سمات بنيوية محددة تحضر في معظم الألعاب وسمات بنيوية خاصة تحضر في معظم الخطابات اللفظية.

سيرل: صحيح، اسمح لي فقط أن أعيد توكيد أسباب التشبيه: أولا، ممارسة لعبة ما هو نشاط اجتماعي إنساني، وليست شيئا متساميا (Sublime) يحدث في أذهاننا فقط، كما أنها لا تتألف من مجرد مجموعة من العلاقات المنطقية المجردة، فالألعاب اجتماعية وتخضع لقواعد. وهاتان، فيما أعتقدُ، سمتان قصدهما فيتجنشتين من تشبيه استعمال الكلمات بلعب الألعاب. وقوة هذا التشبيه تكمن في تأكيد ضرورة النظر إلى اللغة في أثناء عملها (In action)، والنظر إلى تكلم اللغة بوصفه جزءا من السلوك الجاري المنظَم والاجتماعي والخاضع لقواعد.

إلى هنا، أظن أن هذا الموقف يبدو غير مثير للجدل، عندنا على الأقل، إلّا أن له جانبا أكثر جذرية يتخطى التشبيه بالألعاب: ففيتجنشتين يشدد بإلحاح على عدم وجود أية وجهة نظر تقع خارج ألعاب اللغة، يمكننا انطلاقا منها الرجوع إلى الخلف، إذا جاز التعبير، وتقييم العلاقة بين اللغة والواقع. لم يعتقد أننا قادرون على مغادرة اللغة والنظر إلى العلاقة بين اللغة والواقع من الخارج ورؤية ما إذا كانت اللغة تمثل الواقع بكيفية مناسبة أم لا. فلا وجود لنقطة ارتكاز ثابتة غير لسانية يمكننا، انطلاقا منها تقييم مدى نجاح اللغة أو إخفاقها في تمثيل العالم الحقيقي ومواجهته أو التعاطي معه، فنحن دائما نعمل انطلاقا من لعبة لغوية أو أكثر. إذن، لا يمكن أن يوجد أي تقييم متعال لمدى ملاءمة الألعاب اللغوية؛ لأنه لا وجود لأي وجهة نظر غير لسانية متعالية يمكن انطلاقا منها تقييم هذه الألعاب.

ماغي: لكن، ألا يترتب عن هذا ألّا تكون لنا صلة فعلية مع «العالم الحقيقي»؟ وإذا كان الأمر كذلك؛ فهذه قطيعة جذرية مع فلسفة فيتجنشتين المبكرة التي لا تشك إطلاقا في وجود حقيقة مستقلة، فوفقا لتلك الفلسفة نحن نعيش في عالم من الوقائع، ووظيفة اللغة هي تصوير هذه الوقائع، وبذلك تكون فلسفته المبكرة هي بالتأكيد حول علاقة اللغة بالواقع – حول كيفية تصوير اللغة للواقع، وحول ما يمكن وما لا يمكن تصويره. لكن، يبدو وكأنك تقول الآن إنه وفقا لفلسفته المتأخرة ليس بمستطاعنا أن نقيم أي مقارنة بين اللغة وشيء لا يعد لغة؛ لِأنّا لن نستطيع أبدا أن نكون في وضع غير منغرس في اللغة، أي ليس داخل اللغة، إن صح التعبير. فكل بنياتنا المفهومية – تصوراتنا للعالم المعتاد وللعلم وللفن وللدين ولكل شيء – نكونها بمصطلحات لسانية لا يمكننا الخروج منها البتة. في ضوء هذا، إما أنه لا وجود إطلاقا لعالم واقعي، وإما أنه لا يمكننا أبدا امتلاك معرفة مستقلة به أو اتصال إذا كان موجودا. فهل هذا هو ما يقوله فيتجنشتين المتأخر؟

سيرل: لا. في الواقع، أعتقد أن الطريقة التي عرضتَ بها هذا الموقف هي من مميزات الطريقة التي أُسيء بها فهم فيتجنشتين. عدد من الناس يعتقدون أن هذه الرؤية تقود إلى نوع من المثالية، مثالية لسانية ربما، تقود إلى عَدّ الكلمات هي وحدها الأشياء الموجودة. لكن هذا لا يمثل إطلاقا موقف فيتجنشتين؛ فهو لا ينكر

وجود ألعاب لغوية نتحدث فيها عن أشياء حقيقية في العالم الحقيقي، فيمكننا، مثلا، التحدث عن هذه الطاولة أو الأريكة التي نجلس عليها أو عن مدار الإلكترونات في ذرات الهيدروجين. فيتجنشتين لا ينكر أن هذه الكلمات تحيل فعليا على أشياء، فهذه في الواقع أحد الأشياء التي نستعمل الكلمات لفعلها؛ أي الإحالة على أشياء في العالم؛ لكنه يقول: عندما نحيل على أشياء في العالم، فنحن نعمل حينئذ في إطار لعبة لغوية، ومفهومنا عن «العالم» وكيفية تقسيمنا له مشروطة سلفا ببنية لغتنا.

الآن، من سوء الفهم أن نعتقد أن فيتجنشتين يقول حول هذه الفكرة الأخيرة: «كل شيء متصل بلعبة لغوية» أو «الحقيقة مرتبطة باللعبة اللغوية». فملحوظات كهذه، تفترض سلفا أننا قادرون على مغادرة اللغة كلية والنظر إلى العلاقة بين اللغة والواقع من الخارج ثم استنتاج: «آه، الحقيقة مرتبطة باللغة». قولك هذا يوقعك في الخطأ نفسه الذي يرتكبه من يقول: «آه، الحقيقة مطلقة». كَلّا، فهذان المنظوران يرتكبان الخطأ نفسه، أي الظن بوجود وجهة نظر خارج اللغة يمكننا انطلاقا منها تفحص العلاقة بين اللغة والواقع، ثم وصف كيفية تمثيل اللغة للواقع.

بناء على رؤية فيتجنشتين، نحن دائما نعمل داخل اللغة، حتى عندما نصف عمل اللغة. اسمح لي بالتعبير عن هذه النقطة سريعا: فيتجنشتين لم ينكر ولو لحظة واحدة وجود الواقع، هو لا ينكر وجود العالم الحقيقي، أو حقيقة أننا قادرون على بناء ادعاءات صادقة حوله. ما كان متحمسا للتشديد عليه، بالمقابل، هو أنه إذا كنا نملك في لغتنا تعابيرا مثل: «عالم واقعي» و«واقع» و«صدق»، فلابد إذن أن لها استعمالا في ألعاب اللغة مشابه تماما، وعلى نحو متواضع واعتيادي، لاستعمال كلمات مثل: «كرسي» و«طاولة» أو «كلب» أو «قِط». ومهمة الفلاسفة، في رأي فيتجنشتين، ليست هي استبصار الطبيعة المتعالية للواقع والحقيقة، وإنما هي الاشتغال بوصف الكيفية الفعلية التي نستعمل بها تعبيرات مثل «واقعي» و«حق».

ماغي: اسمح لي برد هذا إلى شيء يسير ومباشر، للتأكد من أننا وصلنا إليه بوضوح. هل جزء مما يقوله فيتجنشتين هو أنه لكي أرى هذه يدا، يجب أن أمتلك سلفا مفهوم «اليد»، ولأرى هذه طاولة يجب أن أمتلك سلفا مفهوم «الطاولة»، وعليه، فما أراه واقعا بوصفه كائنا هو مكون عن طريق بنية مفهومية كاملة يجب أن تكون في حوزتي ابتداء ويمكنني التعبير عنها باللغة؟ أهذا ما يقوله ـ أم هو جزء منه؟

سيرل: هذا صحيح إلى حد ما. لكن، أعتقد أن مقصد فيتجنشتين يذهب إلى ما هو أعمق من هذا. فإذا قاربنا أعماله من الناحية التاريخية، يبدو لي أننا سنجد أنه جزء من حركة أوسع ظهرت في المئة سنة الأخيرة ميزت الحياة الثقافية في القرن العشرين حيث لم يعد بمستطاعنا قبول اللغة بوصفها مسلّمة (For granted).

لقد أصبحت اللغة إشكالية على نحو هائل بالنسبة إلينا، لقد تحولت إلى مركز الفلسفة، وفيتجنشتين هو أحد القادة العظام لهذا التحول.

مبدئيا، سيوافق فيتجنشتين يقينا على ما قلتَه للتو؛ أي على فكرة أن الحقيقة تُقسِّم الطريقة التي نقسمها بها، وأننا لا نستطيع التفكير في كيفية تقسيمنا لها إلا من خلال اللغة، فنحن نستطيع التفكير في هذه بوصفها يدا أو تلك بوصفها طاولة، لأننا نملك مفاهيم ذات صلة (Relevant)، وهي الكلمات ذات الصلة؛ لكن ما يقصده هنا يذهب إلى ما هو أعمق من هذا. فهو يرى أنه لن يكون هناك شيء يسمى تفكيرا أو خبرة حتى ـ على الأقل ما دمنا نعُد الخبرة سمة لحياتنا الإنسانية الراشدة ـ بمعزل عن استعمال التعابير اللسانية. فالتفكير، في رأيه، يعمل مع التعابير فقط؛ وبهذا، فاللغة تتغلغل في كامل التفكير، ومن ثم، في التجربة الإنسانية برمتها.

مثال: لعبة اللغة الدينية

ماغي: ربما قد تتضح نوع الحقيقة المستقلة التي يجيزها فيتجنشتين، إذا استحضرنا وجهة النظر التي أدليتَ بها للتو بالتزامن مع تلك التي كنتَ تدلي بها، أو تشير إليها، في وقت سابق، والقاضية بأن كل لعبة لعبة لا تُفهم إلا من داخلها.

رفضَ الطرازُ القديم من الوضعيين المناطقة، ممن تأثروا بشدة بقراءاتهم لفلسفة فيتجنشتين المبكّرة، رفضا شديدا جميع أشكال الملفوظات (Utterances) الدينية؛ لأنها غير قابلة للتحقق، وعدّوها، حرفيا، خالية من المعنى. لكن فيتجنشتين المتأخر قد يكون له موقف مختلف عن هذا تماما. كان ليقول: إن هذا ملفوظا دينيا، وهو موجود في كل أشكال المجتمع المعروفة، وإذا أردنا فهمه فلابد أن نهتم اهتماما وثيقا بالطريقة التي توظف بها أمثلة ملموسة منه خلال أشكال حياة (Forms of life) محددة؛ فكل نمط من أنماط الخطاب له منطق خاص به يناسبه. وببساطة، ليس من الجيد أن يُقَيِّم المرء ملفوظات دينية كما يقيم ملفوظات علمية ـ مثلما يفعل ذلك الوضعيون المناطقة.

سيرل: حسنا، يبدو لي أنه ينبغي أن نكون حذرين جدا بخصوص الكيفية التي نعرض بها هذه المسألة الأخيرة. كان فيتجنشتين ليقول إن مهمتنا، نحن الفلاسفة، ليست هي تقييم نجاح لعبة اللغة الدينية أو إخفاقها، فكل ما نستطيع فعله هو وصف الكيفية التي تُلعب بها، فما تهمّنا رؤيته هو أنها لا تعلب كلعبة اللغة العلمية. فقد اعتقدَ أنه من السخف أن نفترض تَعيُن تصور الملفوظات الدينية كما لو كانت ضربا من الملفوظات العلمية الرديئة، كما لو كانت نظريات لا نملك أدلة وافية عليها. لقد حرص دائما على التشديد على ضرورة النظر إلى الدور الذي تلعبه الأنماط المختلفة من الملفوظات في حياة الناس، فهناك، وفقا لرأيه، سنعثر على

معناها. لقد كَره فكرة أنه ينبغي أن نغالي في عقلنة (Over-intellectualise) هذه المسائل، وأن نحاول تصيير كل شيء نوعا من المشاريع التنظيرية. كما كره فكرة أنه ينبغي أن نختبر دعوى "وجود الله" كما لو كنا نختبر دعوى في الفيزياء لرؤية ما إذا كانت تتوافق مع معايير علمية ما. وبالمقابل، إليك مثال عن نوع الأشياء التي يحبها فيتجنشتين: لاعب الكريكت الإنجليزي العظيم غرايس (W.G.Grace)، قفز ذات مرة فوق كرسي في اجتماع وصرخ بشيء من قبيل: «الله لا يريد رأسا، فأي ملفوفة (الكُرُنْبُ) قديمة ستفي بالغرض، الله يريد قلبا». الآن، فيتجنشتين أحب ذلك؛ لأنه اعتقد أن هذا هو التوجه الصحيح الذي ينبغي اتخاذه تجاه الدين. اعتقدَ أن هذا كان مثالا للعبة اللغوية في أثناء اشتغالها. ما لم يرقه، في المقابل، هو ذاك النوع من التوجهات التي عبر عنها زميله في جامعة كامبردج يونغ[14] (A.C.Ewing)، عندما أحال مرة في إحدى الاجتماعات الفلسفية إلى "فرضية الإيمان بالله» (The Theistic Hypothesis). رفض فيتجنشتين قبول أن تكون حرب الثلاثين سنة[15]، على سبيل المثال، نشبت بسبب بعض «الفرضيات» فقط.

لتلخيص هذه النقطة: اعتقد فيتجنشتين أنه إذا أردت فهم نوع معين من الخطاب، مثل الخطاب الديني أو أي نوع آخر، فانظر إلى الدور الذي يلعبه فعليا في حياة الناس؛ فهو يرى أن الخطأ المميِّز للحياة الفكرية في القرن العشرين هو محاولة معالجة كل المساعي الفكرية كما لو كانت محاولات للتشبه بالعلم؛ فقد رأى أن للعلم مكانه الذي لا يعدوه، مثله في ذلك مثل أي شيء آخر، ومن الخطأ أن نعالج موضوعات من الواضح أنها ليست أشكالا من العلم والتكنولوجيا كما لو كانت محاولات غير ناجحة لبلوغ العلم والتكنولوجيا.

مهمة الفلاسفة

ماغي: اتضحت فكرتك. أرى أنه من المهم أن نضيف أن فيتجنشتين أكد بقوة ألّا نأخذ بتوجه «كل شيء جائز»؛ فهو لم يعتقد أننا نستطيع استعمال اللغة كما يحلو لنا، ثم ندعي أن لملفوظاتنا معنى أو صلاحية مساوية لملفوظات الآخرين؛ بل اعتقدَ أنه ينبغي أن نولي أهمية بالغة للطريقة التي نستعمل بها اللغة. وأحد أسباب اعتقاده هذا هو عده المشكلات أو المُربِكات الفلسفية (Philosophical Puzzlements) تنشأ، في الغالب، جراء سوء استعمال الكلمات، وتحديدا، عندما نُخرج نمطا من التعبير كما يعمل في لعبة لغوية حيث مكانه الصحيح وندخله في نمط آخر؛ ستنشأ المعضلات، على سبيل المثال، إذا عالجتَ عبارة دينية كما لو كنت تعالج عبارة علمية.

---

14 ألفريد سيريل إوينغ (Alfred Cyril Ewing) (1899-1973) أستاذ جامعي وفيلسوف بريطاني اشتهر بدراساته الأخلاقية والمثالية، يعد من أشهر نقاد فيتجنشتين.

15 حرب شعواء اجتاحت أوروبا ما بين (1618-1648)، بدأت حربا دينية بين البروتستانت والكاثوليك، شاركت فيها فرنسا وألمانيا. ويرفض فيتجنشتين أن يرجع أسباب هذه الحرب الطاحنة إلى مجرد فرضيات.

سيرل: هذه النقطة بالذات صاغها فيتجنشتين بالقول: إن المشكلات الفلسفية تنشأ عندما نُخرج كلمة ما من لعبتها اللغوية حيث منزلها الأصلي، ثم نحاول التفكير فيها بوصفها رمزاً لشيء متسام؛ يقول إن المشكلات الفلسفية تنشأ، عندما «تذهب اللغة في عطلة»؛ أي: عندما تكف كلمة ما عن أداء العمل المناسب لها الذي وضِعت من أجله، وعندما نفحص الكلمات بمعزل عن الألعاب اللغوية التي تَستمد منها فعليا معانيها؛ عندما نحاول، على سبيل المثال، الاستقصاء عن الطبيعة الجوهرية للمعرفة أو الخير أو الصحيح أو الجميل، بدل الاكتفاء بالنظر في الكيفية التي تُستعمل بها هذه الكلمات ـ وغيرها ـ فعليا في الألعاب اللغوية التي تَستمد منها معانيها.

لكن، أودّ الاعتراض على شيء قلتَه حول هذا في وقت سابق. قد يُفهم مما قلتَه أنك تعني أن هناك لعبة لغوية خاصة بالفلسفة. لا أعتقد أن فيتجنشتين يرى ذلك. أعتقدُ أنه رأى أن بحسْب الفلاسفة أن ينخرطوا في لعبة الوصف اللغوية ولا يعتدوها. ينبغي أن يصفوا الكيفية التي تُستعمل فعليا بها الكلمات، أن يصفوا الكيفية التي تُستعمل بها اللغة بطريقة تمكننا من حل، أو بالأحرى التحلل، من المشكلات الفلسفية المتكررة؛ كما ينبغي لهم التخلي عن فكرة أن الفلسفة لها مهمة خاصة في توفير شرح أو تسويغ يتجاوز مستوى الوصف. إذن، في كلمة واحدة، الفلسفة ليست لعبة لغوية خاصة؛ فهي لا تملك مجموعة خاصة من القواعد أو الإجراءات، والأَوْلى لنا أن نكتفي بالولوج إلى داخل الممارسات الفعلية للناس، لاسيما ممارساتهم اللغوية، ووصف ما يفعلونه. ويمكننا كذلك، أن نصف بدائل لممارساتنا الحالية من أجل التحرر من الفكرة القائلة إن ممارساتنا اللغوية ضرورية أو لا مفر منها. وهذه الأوصاف المتنوعة ننشئها من أجل أغراض فكرية محددة، وفي تصوره، نحن «نجمع المذكرات لغرض ما» (Assembling reminders for a purpose)، وهذا الغرض هو دائما إزالة الخلافات الفكرية الناشئة عن حرصنا، الذي لا مفر منه، على إساءة فهم طبيعة اللغة. فمثلا، نحن نتوق باستمرار إلى نوع من النظرية العامة حيث لا توجد نظرية عامة، وللأسس حيث لا توجد أسس، وللماهيات حيث لا يكون هناك سوى تشابهات أسرية. هذه أنواع نمطية من ضروب الأخطاء التي يعتقد فيتجنشتين أن الفلاسفة يتصفون - بكيفية حتمية في حقيقة الأمر - بارتكابها، والقصد من الوصف الفلسفي هو اجتثاث الميل إلى ارتكاب هذه الأخطاء.

اللغة الخاصة

ماغي: في كامل حديثنا حتى الآن حول التشبيهات التي عقدها فيتجنشتين بين الألعاب واستعمال اللغة، لم نتطرق إلى مسألة بالغة الأهمية، وهي الخلاف الشهير حول: «اللغة الخاصة» (Private Language). فقد جادل فيتجنشتين عن أن اللغة لكي تعني أي شيء على الإطلاق يجب أن تَخضع استعمالاتها لقواعد

محددة، لكن عددا من المعايير التي تُكوِّن القاعدة أو الامتثال لقاعدة هي ذات طابع اجتماعي على نحو لا فكاك منه، وعليه، فإن وجود اللغة الخاصة محال[16]. لكن على الرغم من هذه الحجة، فلم يُجمع الفلاسفة كلهم حول ما خلص إليه فيتجنشتين، وثار خلاف حول هذه المسألة منذ ذلك الحين. في الواقع، تعد قضية اللغة الخاصة من أكثر جوانب فلسفة فيتجنشتين إثارة للجدل بين محترفي الفلسفة.

سيرل: نعم بالتأكيد، لقد كانت مثارا للجدل. في الواقع، أنا راغب قليلا عن الخوض في هذه المشاحنة، ذلك أن الكثير من التفاهات قد كُتبت عن حجة اللغة الخاصة، وأُفضل ألّا اتورط في النزاعات الشهيرة حول التأويل. لكن على أي حال، من أجل شرح معالجة فيتجنشتين للغة الخاصة، لا بد من قول المزيد عن مفهومه للقواعد والسلوك الخاضع لقاعدة. لقد كنا نتحدث كما لو أن فكرة القاعدة عند فيتجنشتين مسلّم بها. لكنها، بالطبع، ليست كذلك. في الواقع، مناقشته للقواعد من أهم مساهماته الفلسفية.

أول ملحوظاته هي أن القواعد لا تُراعى في جميع الحالات الممكنة؛ فاللغة ليست مقيدة بالقواعد في كل مكان. في الواقع، لا يوجد أي نظام تقيده القواعد في كل مكان، فهناك دائما ثغرات عديدة تُترك مفتوحة من قِبل أي نظام من القواعد. ويضرب لهذا مثلا برمي كرة التنس حال الإرسال، فليست هناك قاعدة تحدد المدى الذي يمكنك رفع الكرة إليه، هَبْ أن شخصا ما استطاع قدف الكرة خمسة أميال في الجو، فتسبب بتأخير اللعبة، فحينئذ ستكون السلطات الوصية على اللعبة مطالبة بسن قواعد جديدة لاستيعاب هذه النازلة؛ لكن، حتى وإن فعلتْ، فلن يغدو نظام قواعدها يوما ما «مكتملا» قط، إذ ستِرد دائما إمكانات جديدة لم تأخذها القواعد القائمة في الحسبان.

الآن، الملحوظة الثانية التي أثارها، وهي ذات صلة بالأولى، هي أن القواعد موضوع دائم للتأويلات المختلفة، إذ يمكنك دائما أن تجد طرقا لتفسير قاعدة ما لتُظهر أن سلوكك متوافق بالفعل معها وإن لم يبد كذلك أول الأمر. ومن الأمثلة التاريخية الجيدة على هذا، نذكر التطور الحاصل في قوانين ضريبة الدخل في الولايات المتحدة، حيث يوجد صراع مستمر بين السلطات الضريبية والناس الذين يحاولون الالتفاف على الغرض من القاعدة بإعادة تأويلها، لتظهر سلوكياتهم متوافقة معها. تأسيسا على هذا، يرى فيتجنشتين أن نوعا من المفارقات ستنشأ حتما، عندما نفكر في مشكلة اتباع قاعدة ما؛ لأنه إذا كان هناك أي شيء

16 نعيد صياغة حجة اللغة الخاصة على الشكل الآتي:

- اكتساب اللغة للمعنى رهين بخضوع استعمالاتها لقواعد محددة.
- القواعد تتكون من مجموعة من المعايير (هي من تحدد متى نتوافق أو نتعارض مع القاعدة).
- المعايير التي تكون القاعدة يضعها المجتمع.
- اللغة ذات طابع اجتماعي ويستحيل أن تكون خاصة.

يمكن اتخاذه للاتفاق مع القاعدة على أساس تأويل معين، فإن أي شيء آخر يمكن اتخاذه أيضا للمواجهة معها باصطناع بعض التأويلات الحاذقة. أي أننا، والحال هذه، لن نكون متوافقين مع القاعدة ولا متواجهين معها. يبدو كما لو أن القاعدة سيُتخلى عنها ببساطة لكونها غير ذات صلة، فهي لن تؤدي أي دور في تفسير السلوك.

حلَّ فيتجنشتين هذه المشكلة بالإشارة إلى أن طاعة قاعدة ما هي ممارسة اجتماعية، هي شيء نقوم به في المجتمع ونتعلمه فيه. فالمجموعات الاجتماعية تمتلك طرائق معينة لجعل الناس يتوافقون مع القواعد، وتَتبِع أساليبا لتدريبهم على الامتثال لها، وبهذه الطريقة يحدد المجتمع ما يعد امتثالا للقاعدة. وبهذا، في رأيه، نملك ما يمكن عده استجابة غير "تأويلية" للقاعدة. فنحن نعمل وفق القاعدة بالطريقة التي دُربنا للعمل بها وحسْب.

الآن، مناقشة فيتجنشتين للغة الخاصة هي مناقشة لمشكلة منفصلة عن مشكلة اتباع قاعدة، لكنهما مرتبطتان؛ لأن حله لمشكلة اتباع قاعدة هو الحل نفسه الذي يقدمه لمشكلة اللغة الخاصة.

مشكلة اللغات الخاصة هي: هل يمكن أن تكون هناك لغة استعمل فيها الكلمات لتسمية أحاسيسي الخاصة، على نحو لا يمكن لأحد سواي أن يفهم هذه الكلمات لأنها تُعرَّف فيما يبدوانطلاق من مصطلحات التجارب الخاصة المعروفة لي وحدي؟ السبب الذي يجعل هذه المشكلة تبدو في غاية الأهمية هو أن الإبستمولوجيا التقليدية من النوع الذي نجده عند لوك وبيركلي وهيوم، على سبيل المثال، تقوم على فكرة أنه ينبغي لنا بناء معرفة بالعالم انطلاقا من الداخل إلى الخارج؛ أي أننا ننطلق مع إحساساتنا الداخلية الخاصة ثم نبني لغة عامة ومعرفة انطلاقا من تجاربنا الداخلية.

جادل فيتجنشتين، في مناقشته لمشكلة اللغة الخاصة، أولا عن أن هذه ليست هي الكيفية الحقيقية التي تعمل بها لغتنا للتعبير عن الأحاسيس الداخلية. فنحن لا نعطي تعاريفا داخلية خاصة لكلمات الإحساس لدينا، لكن بالأحرى، لغتنا الحسية، لغتنا الواصفة للتجارب الداخلية، مرتبطة، من الألف إلى الياء، بالظواهر الاجتماعية العمومية. ففقط لأن الآلام، على سبيل المثال، تظهر في أنواع معينة من الحالات وتُنتج أنواعا معينة من السلوك يكون بمقدورنا أن نملك مفردات للتحدث عن الألم أصلا. لغتنا العادية المعبرة عن الإحساس ليست لغة خاصة فعلا، لأننا نتعلم مصطلحات هذه اللغة ونستعمل شروطها بالتوافق مع معايير عمومية (Public)، معايير متعلقة بالسلوك والوضعيات.

ثانيا، وبدرجة أكثر إثارة للجدل، يدَّعي فيتجنشتين أننا في الواقع لا يمكن أن نملك لغة خاصة، لا يمكننا إعطاء تعريف خاص مزعوم، حينما نكتفي بالإشارة داخليا إلى تجربة خاصة، نسمي تلك التجربة، ومن ثم نستعمل الاسم للإحالة إلى التجربة نفسها في المستقبل. ولإثبات دعواه يلجأ فيتجنشتين إلى البرهان بالخُلف[17] (Reductio ad absurdum)، فيقول: لو سلمنا بالنموذج أعلاه وفكرنا في لغة الإحساس وفقا له، فلن يكون بمستطاعنا التمييز بين استعمال كلمة ما فعليا استعمالا صحيحا ومجرد الظن باستعمالها استعمالا صحيحا، وإذا لم يكن هناك تمييز بين استعمال الكلمات فعليا على نحو صحيح ومجرد الظن باستعمالها استعمالا صحيحا، فلن يكون بمقدورنا إذن الحديث أصلا عما هو صحيح. ومن ثَم، فإن الفكرة القاضية بإمكانية امتلاكنا للغة خاصة تؤدي إلى نتائج مستحيلة.

حَلُّ فيتجنشتين لهذا اللغز؛ أي كيف يمكننا مطلقا استعمال الكلمات للإشارة إلى الأحاسيس الداخلية، يشبه حله للمشكلة العامة المتعلقة باتباع قاعدة: فقواعد استعمال كلمات الإحساس قواعد اجتماعية عمومية تُتعلم في وضع اجتماعي وتطبق فيه، وهذه المعايير الخارجية مصادق عليها اجتماعيا وتطبق اجتماعيا؛ فكوننا أعضاء في مجتمع لغوي ما هو ما يمنحنا أصلا قواعد لغوية، ولأننا نملك معايير اجتماعية عمومية، لتجاربنا الداخلية فنحن نستطيع امتلاك لغة تحيل على تجاربنا الداخلية. ويلخص هذه النقطة بالقول: «"العملية الداخلية" تفتقر إلى معايير خارجية».

ماغي: من أجل توضيح حجة فيتجنشتين أودّ تأكيد نقطة واحدة، ربما بصيغة أقوى مما فعلتَ، هي أننا نتعلم استعمال الكلمات، بما في ذلك الكلمات المعبرة عن الأحاسيس الداخلية، من أشخاص آخرين. الكلمات والمفردات المعبرة عن الأذواق والروائح والألوان والآلام والأحلام وكل الأنواع الأخرى من التجارب «الداخلية» هي موجودة دهرا قبل مولدنا، وكذلك هي معايير استعمالها استعمالا سليما. وما نفعله عندما نأتي إلى العالم هو أن نتعلم من الآخرين كلا من الكلمات وكيفية استعمالها استعمالا سليما.

عندما ينظر المرء بجد إلى ما يترتب عن هذا، فسيتبين له أن الكلمات الموجودة واستعمالاتها التي لها معنى هي ظاهرة اجتماعية على نحو لا مناص منه، مهما كانت «داخلية» و«خصوصية» ما تُستعمل للحديث فيه. وكما قلتَ، فإن آثار ذلك كانت عميقة جدا على نظرية المعرفة؛ لأنها تعني أننا لا نشكل أو نستطيع تشكيل تصورنا للعالم بالانطلاق من عناصر خاصة بنا حصرا، ثم بعد ذلك بناء الخارج انطلاقا من تلك العناصر،

17 ويسمى أيضا بقياس الخلف، وهو استدلال غير مباشر، نثبت به صدق القضية بإثبات أن افتراض صدق نقيضها يؤدي إلى نتائج مستحيلة وفاسدة، أي خُلف:

ـ اللغة الخاصة غير ممكنة.

ـ لو كانت اللغة الخاصة ممكنة فلن يكون هناك فرق بين استعمال اللغة استعمالا صحيحا ومجرد توهم استعمالها استعمالا صحيحا.

∴ لن يكون بمقدورنا إذن الحديث عما هو صحيح على الإطلاق (يتساوى الصحيح والباطل وهذا خلف).

حتى نصل إلى العالم «الخارجي» وبقية الناس. وأن تقول هذا معناه الوقوف ضد تقليد فلسفي كامل، ذلك الذي بدأ مع ديكارت.

يرى فيتجنشتين المتأخر أن معايير المعنى اجتماعية كلها في نهاية المطاف، وليست شخصية، وتبقى أقل خصوصية؛ فالكلمات تستمد معناها من السياقات التي تُستعمل فيها، وهذه تعتمد بدورها على الممارسات الاجتماعية، ومن ثم على سبل العيش وأشكال الحياة في نهاية المآل. وفي الواقع هو يستعمل هذا المصطلح "أشكال الحياة" في هذا السياق.

سيرل: هذا صحيح. من المهمّ جدا تأكيد أن تصور استعمال الكلمات في حد ذاته هو تصور اجتماعي. استعمال الكلمات هو شيء أقوم به بالاشتراك مع أعضاء آخرين في مجتمعي. وفقط لأننا دُرّبنا على استعمال الكلمات وعلى مهمة اتباع القواعد، يكون بمقدورنا، عموما، تجنب ذلك النوع من التشكيك الذي يمكن وفقا له إظهار أي شيء نقوم به بمظهر الفعل المتوافق مع القاعدة ـ لأننا نستطيع دائما تأويل القاعدة تأويلا يضمن توافق أي سلوك نقوم به معها. أنت على حق في لفت الانتباه إلى حقيقة أن فيتجنشتين يؤكد فكرة أن اللغة هي شكل من أشكال الحياة. ولهذه الفكرة آثار عديدة بالنسبة إليه، لكن واحدة من أهمها هي أننا لا يمكن أن نقتطع اللغة وننظر إليها بمعزل عن بقية الأنشطة البشرية. فاللغة ترتبط في كل مكان مع بقية أنشطتنا.

فيتجنشتين وفرويد: العلاج

ماغي: كثيرا ما يُعقد تشبيه بين فلسفة فيتجنشتين المتأخر والتحليل النفسي الفرويدي. فوفقا لفرويد، قد ينجم العُصاب عن التثبيتات النفسية (Psychological Hang-ups) التي يكون المريض غير واع بها، ومهمة المعالج النفسي أمام هذه الحالات هي تعقب السبب الخفي للمشكلة وإخراجه للنور. وعندما يعي المريض وعيا تاما بما كان سببا في مشكلته، فإنها تُحل ويشفى. التوافق هنا مع فيتجنشتين المتأخر تام تقريبا. فمشكلاتنا الفلسفية تنتج، وفقا لفيتجنشتين، عن الالتباسات المفهومية التي تجد جذورها في سوء استعمال عميق للغة. ومهمة الفيلسوف هي تعقب أسباب هذه الالتباسات وتسليط الضوء عليها. وعندما يتم ذلك، فإن المشكلة تمسي كأن لم تكن.

هناك عنصر علاجي في مهمة الفيلسوف: ففيتجنشتين يرى أن المُربِكات الفلسفية هي نوع من المرض، ومنهجه يقدم نفسه بوصفه علاجا.

سيرل: فعلا. في الواقع كلمة «علاج» من الكلمات التي يستعملها فيتجنشتين؛ فهو يقارن معالجة الفيلسوف لمشكلة ما بمعالجة الطبيب للمرض. وكثيرا ما قورن بينه وبين فرويد، لكن هذه المقارنة غريبة في بعض

نواحيها؛ لأن فيتجنشتين كان له، ولا غرو، اعتراضات جدية جدا على فرويد. فقد اعتقد أن تظاهر فرويد بالعلم كان خطأ جسيما. مع هذا، فـ «العلاج» عند فيتجنشتين يشبه التحليل النفسي في هذا الشأن على الأقل، وهو: عَدُّ الالتباسات التي نقع فيها جراء سوء فهم منطق لغتنا عميقة ولا واعية بدرجة كبيرة، ومهمة الفيلسوف، انطلاقا من مجموعة متنوعة من العلاجات، هي إخراجنا من هذه الالتباسات بجعلنا واعين، كي نرى الطابع الحقيقي للوقائع؛ تماما كما اعتقد فرويد أن العُصابي يمكنه التغلب على عُصابه إذا جلب إلى الوعي النزوات المكبوتة المسببة لأعراضه. لهذا، يعتقد فيتجنشتين أنه إذا أصبحنا واعين بالطابع الحقيقي لاستعمالنا للغة، فسيمكننا القضاء على التشنجات الفكرية والتثبيتات والعوائق التي تترتب عن إخفاقنا في فهم الكيفية الفعلية التي تعمل بها اللغة.

ماغي: للأسف، بعض الناس أصبحوا مهووسين بفيتجنشتيين المتأخر بالطريقة نفسها التي أصبح بها آخرون مهووسين بالتحليل النفسي. وأمام الحالتين يذكرني هذا في بعض الأحيان بملحوظة كارل كروس[18] (Karl Kraus): «التحليل النفسي هو المرض الوحيد الذي يتوهم نفسه علاجا».

سيرل: نعم، فعلا. لقد تحول فيتجنشتين، إيجابا أو سلبا، إلى «معبود للجماهير» (Cult Figure)

لكنه إلى الآن، على الأقل - لحسن الحظ - بدرجة أقل من فرويد.

أسلوب الكتابة

ماجي: أعتقدُ أننا يجب أن نقول شيئا عن الطريقة غير الاعتيادية التي كُتبت بها كتب فيتجنشتين ـ ففي النهاية، هذا هو أول شيء يَفْجأ أي شخص يطالع واحدا منها أول مرة؛ فهي لم تُكتب نثرا مسترسلا، بل على شكل فقرات منفصلة ومرقمة، دون إرشادات كافية تساعد القارئ على وضعها في إطار حجة متصلة. وفي كثير من الأحيان، يصعب تماما معرفة العلاقة بين الفقرات مهما قلّبتها على جوانبها. كتابته متميزة بذاتها ـ مليئة بالتشبيهات الرائعة، والاستعارات والأمثلة، وغالبا ما تُقدم لمحات فورية ومدهشة ـ مع ذلك، من الصعب، على الأقل في البداية، أن تدرك القصد منها على الإطلاق. لماذا اختار الكتابة على هذا النحو؟

سيرل: حسنا، هناك عدّة أسباب. لكن، اسمح لي أولا أن أوافقك تماما في ما قلته عن طبيعة نثره، فهو آسر ومثير للغيض في آن واحد. وقد ذُكّرتُ بذلك، عندما كنتُ أُعد لهذا الحوار. لقد أعدتُ تقريبا قراءة أعمال فيتجنشتين المنشورة كلها، وبعد قضاء مدة في قراءتها تصبح جاذبية أسلوبها آسرة جدا. إليك مثال نموذجي أُحبه من أسلوبه: «عندما يخاف المرء من الحقيقة ـ كما أنا الآن ـ فليست الحقيقة الكاملة هي ما يخيفه بتاتا».

18 كاتب وناقد نمساوي (1874- 1936)، اشتهر بنقده الساخر للتحليل النفسي الفرويدي.

إذا كنتَ مكثرا من قراءة نثره، فستبدأ أنت نفسك في التفكير بهذه الطريقة. تبدأ في مخاطبة زوجتك بالأمثال الفيتجنشتينية، التي يمكن أن تكون غائظة لها جدا؛ كما أنك تشعر عندما تقرأ واحدا من أعماله المتأخرة كمن حصل على مكونات نموذج طائرة، لكن بدون تعليمات تشرح الكيفية المفترضة لتجميع كل القطع معا. وهذا أيضا قد يكون محبِطا جدا. أي عمل من أعماله المتأخرة هو شيء من قبيل كتب: فليقم صاحب الحاجة إلى حجته[19] (Do it yourself book).

لماذا كان يكتب على هذا النحو؟ حسنا. أولا، أعتقدُ أنها الطريقة الوحيدة التي وجدها طبيعية تماما. وكثيرا ما كان يصف العذاب الذي قاساه حتى في محاولة ربط الفقرات معا بطريقة متسلسلة، وما أدراك بكتابة النثر الاعتيادي في الكتب والمقالات الاعتيادية. لكن، ثانيا، أعتقد أن هناك عنصرا في أسلوب فيتجنشتين يمكن نعته بالزهو، فقد أراد عامدا أن يكون عمله مختلفا عن الطرق المعيارية في ممارسة الفلسفة. كان ينفر من المقالات القياسية التي تظهر في المجلات، والكتب الاعتيادية التي يكتبها أساتذة الفلسفة، ليقرأها الطلبة. لكن هذا لا يرجع فقط إلى أنه أراد عامدا أن يكون مختلفا عن الآخرين، بل هناك أيضا جانب ثالث يميز أسلوبه، وهو، فيما أعتقدُ، أنه كان يكافح بصدق وإخلاص من أجل قول شيء جديد ومختلف، كان دائم الإحساس بأنه لم يقل تماما ما يعنيه حقا، فقد كان لا يزال يكافح من أجل إيجاد طريقة في التعبير، وفي نظره، لم ينجح قَط في إيجادها. أخيرا، أعتقد أننا بحاجة إلى أن نقول للقراء الناطقين باللغة الإنجليزية أن هذا الأسلوب في الكتابة، مع أنه يبدو غريبا للقارئ الأنجلو-أمريكي، فهو ليس مستغربا جدا في ألمانيا. هناك تقليد في الفلسفة الألمانية يقضي بالكتابة الشذرية (Writing aphoristically). نجد هذا عند نيتشه وشوبنهاور وليكتنبرغ (Lichtenberg)، على سبيل المثال لا الحصر.

ماجي: على الرغم من بعض الانتقادات التي قد تكون لدينا، وأعتقد أننا متفقان عليها في واقع الأمر، فإن كتابة فيتجنشتين في أفضل حالاتها هي بديعة، وإنصافا له، علينا أن نقول هذا صراحة. فنثره يمكن أن يكون عظيما فضلا عن كونه جديرا بالاهتمام.

سيرل: نعم، إنه أسلوب عظيم جدا.

ماجي: يكفي أن تقرأ بعض عباراته مرة واحدة لتبقى عالقة بذهنك ما عشت.

سيرل: إلى الأبد.

19 أي أن كتب فيتجنشتين تتطلب من القارئ أن يبذل مجهودا شخصيا في الكشف عن معانيها، وألا يعول على الكاتب في القيام بذلك نيابة عنه.

الشخصية العامة

ماجي: في مقدمة هذا النقاش ذكرتُ حقيقة أنه في السنوات الأخيرة، أصبح فيتجنشتين شخصية عامة (A figure) في ثقافتنا بدرجة كبيرة وشخصية ذات أهمية دولية، بعد أن ظل لعقود مجهولا تقريبا خارج إطار الفلسفة المحترفة، وتردد اسمه مرارا وتكرارا في الوقت الحاضر في مراجعات الكتب والمجلات الأدبية مؤشر على شهرته. ولإعطاء مثال ملموس أكثر، فهو يمارس تأثيرا فكريا جادا في الأنثروبولوجيا. هل لك أن تخبرنا ما هي الحقول، خارج الفلسفة، التي كان له فيها التأثير الأكبر؟

سيرل: حسنا، أعتقد أن معظم الإحالات على فيتجنشتين في الوقت الحاضر خارج حقل الفلسفة هي حقا نوع من التباهي بالاسم (Name-dropping). لقد أصبح موضة، واسمه يصلح للتباهي به. ومع أنه يحال عليه بالتأكيد في الكثير من المجالات، لكن أشعر بالثقة إلى حد ما أنه هو نفسه كان ليشعر بأنه لم يُفهم كفاية. وأهم من هذا، أشعُر ــ وأعتقد أنه كان ليشعر أيضاــ أنه لم يُفهم كفاية في الفلسفة كذلك. بعض المجالات الأخرى، حيث يُحال غالبا على فيتجنشتين هي: النقد الأدبي والجماليات عموما. ومن المرجح، فيما أعتقد، أن تصبح رؤاه أكثر تأثيرا كلما استُوعبتْ أعماله في الثقافة الفكرية للعصر. هنالك أيضا الكثير من الإشارة إلى أعمال فيتجنشتين في العلوم الاجتماعية، في الواقع، هو رأى نفسه كمن يمارس نوعا من الأنثروبولوجيا. وقد كُتبت كتب عن أهمية عمل فيتجنشتين للنظرية السياسية. عموما، تأثيره الأكبر كان في الجماليات وفيما يسميه الفرنسيون بـ"علوم الإنسان". ولعل في هذا مفارقة، لأن فيتجنشتين كتب كثيرا حول فلسفة الرياضيات، لكن تأثيره الأكبر، لحسن الحظ أو لسوئه، لم يكن في الرياضيات، بل إن تأثيره يقع خارج إطار الفلسفة؛ فنفوذه في الغالب يطال الدراسات الأدبية والعلوم الاجتماعية.

ماجي: ألا يدعي البنيويون فيتجنشتين لأنفسهم، مع أنهم ليسوا الفلاسفة حتى؟

سيرل: حسنا، أعتقد أن ما بعد البنيويين (Post-Structuralists)، لا البنيويون، هم من فهم فيتجنشتين على النحو الأسوأ. لكن مناقشة هذا الموضوع يتطلب محاورة أخرى.

ماجي: يجب أن أعترف بأنه موضوع لا أعرف عنه شيئا، لنُعرض عنه.

أود أن أختتم هذه المناقشة بوضع موازنة. إذا كنتَ ستُقيِّم فيتجنشتين بوصفه فيلسوفا، فما له وما عليه؟

سيرل: سأبدأ بذكر بعض السلبيات في عمل فيتجنشتين، ثم سأختم بملحوظات أكثر إيجابية. أعتقد أن الخاصية الوحيدة الأشد تخييبا للأمل في أعمال فيتجنشتين المتأخر هي معاداة التنظير (Anti-theoretical

character). فهو يقاوم باستمرار فكرة وجوب السعي وراء نظرية عامة أو تفسير عام للظواهر التي تربكنا وتحديدا ظاهرة اللغة والعقل.

إن حدث وقال لي فيلسوف ما بأنني لا أستطيع امتلاك نظرية عامة، لنقل حول أفعال الكلام أو القصدية (Speech acts or intentionality) مثلا، فإن ميلي الطبيعي أن أرى في قوله هذا نوعا من التحدي، وميلي الطبيعي أيضا هو أن أبرز له وأثبت أنه كان مخطئا، ولقد حاولت القيام بذلك أمام هذين التحديين؛ أي، لقد حاولت أن أكتب سردا عاما لأفعال الكلام والقصدية. أعتقد ببساطة أنه كان ابتسارا من فيتجنشتين أن يقول إنه لا يمكن أن يكون لدينا نوع من النظريات العامة المستنيرة فلسفيا حول الكيفية التي توظَف بها اللغة أو الكيفية التي يرتبط بها العقل بالعالم.

لن يكون بمقدورنا معرفة ما إذا كانت محاولاتنا لبناء نظريات عامة ناجحة، إذا لم نحاول صياغة هذه النظريات واختبارها. والتنوع الهائل للظاهرة في حد ذاته ينبغي ألّا يثبطنا. فَكرْ، مثلا، في الفيزياء؛ إذا فكرت في الشلالات وفي وعاء من الماء المغلي وفي حلبة للتزحلق على الجليد، فسيبدو لك أن ظواهر المياه متنوعة تنوعا هائلا. لكن، في الواقع، لدينا اليوم نظرية عامة جيدة تراعي كل هذا وغيره من الأشكال التي يمكن للماء أن يتخذها. الآن، أنا لا أرى سببا يمنع من أن نحدو حدو الفيزياء فنبني نظريات عامة في فلسفة اللغة أو فلسفة العقل. أحيانا يغلب على ظني أن فيتجنشتين قد اعتقد لا شعوريا أنه مادام قد أخفق في الحصول على نظرية عامة جيدة في **الرسالة**، فإن أي نظرية عامة لا بد أن تكون مستحيلة. تقريبا، يبدو أنه قد اعتقد: إذا كانت نظريتي العامة لم تعمل، فإن أي نظرية عامة أخرى لن تفعل ذلك. في الواقع، العديد من طلبته قد قالوا لي إنه مادمتُ قد رفضت المناحي المعادية للتنظير في **التحقيقات الفلسفية**، فإني، على نحو ما، لا بد أن أكون مؤمنا **بالرسالة**. والظاهر أنهم يعتقدون أن هذين الخيارين هما الوحيدان المتاحان. أريد أن أقترح أنهم قد حَجّروا واسعا.

مع هذا، فإخفاق فيتجنشتين في وقت سابق في الحصول على نظرية عامة مُرضية لم يكن إلا أحد أسباب نزعته المضادة للتنظير، التي أعتقدُ أنها ترجع في المقام الأول إلى سلسلة من الأخطاء الجسيمة. أريد أن أذكر اثنين منها؛ لأنها حاسمة في فهم آرائه بشأن اللغة والعقل.

يحاول فيتجنشتين في فلسفته عن اللغة الابتعاد عن فكرة كون التمثيل (Representation)، بمعنى ما، هو جوهر اللغة لمصلحة وجهة النظر التي تقول إنه ينبغي أن نفكر في اللغة على أنها تتكون من أنماط مختلفة من الأدوات التي يرسل (Signaling) بها أحدنا إشارات للآخر. وهذا يوصله، كما قلتُ في وقت سابق، إلى استنتاج أن هناك تنويعات غير محدودة من استعمالات اللغة، من ألعاب اللغة. لكن، إذا أنعمت النظر في هذه

الاستعمالات اللغوية فستكتشف أن التمثيل يكمن في قلب كل واحدة من الألعاب اللغوية تقريبا. إذا أمرتُك أن تغادر الغرفة، إذا سألتُك ما إذا كنتَ ستغادر الغرفة، إذا توقعتُ أنك ستغادر الغرفة، أو ببساطة إذا عبرتُ عن الرغبة في أن تغادر الغرفة، في كل حالة من هذه الحالات قمتُ بنقلة مختلفة تماما، لعبة لغوية مختلفة عن باقي الحالات. لكن، لاحظ أن كل واحدة من هذه الألعاب اللغوية يجب أن تمتلك القدرة على تمثيل حالة واقعة مغادرتك للغرفة. هذا المحتوى القضَوي المشترك (Common propositional content) يمر من خلال أوامر ورغبات وتنبؤات وأسئلة وهلم جرا. الآن، بمجرد أن ترى أن هذه المحتويات القضوية تتخلل كل لعبة لغوية، فسيمكنك أن ترى أيضا أن التمثيل يسكن قلب اللغة. التمثيل هو جوهر اللغة. الآن، بمجرد أن تدرك ذلك، يمكنك أن ترى أنه ليس هناك عدد غير محدد أو لا نهائي من الأشياء التي يمكننا فعلها انطلاقا من اللغة؛ ففي الواقع عددها محدود نوعا ما، فطرق التمثيل لدينا محدودة. ولقد حاولتُ أن أعطي تقديرا نظريا عاما حول الكيفية التي تعمل بها فعليا مختلف وسائط التمثيل في الأنواع المختلفة من أفعال الكلام. لذلك، في فلسفة اللغة أعتقدُ أن نزوع فيتجنشتين المضاد للتنظير يقوم على خطأ جسيم، يقوم على الإخفاق في رؤية أن التمثيل يكمن تقريبا في قلب كل نوع من ألعاب اللغة.

أعتقد أن هناك خطأ جسيما مماثلا للأول في فلسفة فيتجنشتين حول العقل، وهو الإخفاق في تقدير أهمية الدماغ من أجل فهم الظواهر العقلية. لم يكن عند فيتجنشتين أي شيء تقريبا ليقوله عن الدماغ. لكن العديد من الأشياء التي قالها عن ظواهر الحياة العقلية تقوم على إهمال حقيقة أن العمليات السببية في الدماغ كافية لأي من ظواهرنا العقلية. لذلك، على سبيل المثال، عندما يؤكد أن الظواهر العقلية مثل: الأمل والخوف والحب والكراهية هي ظواهر اجتماعية تحدث في سياقات اجتماعية، فمن المهم أيضا أن نتذكر أن الأجزاء العقلية البحتة (Pure) من هذه الظواهر تَنتج جميعا عن عمليات في الدماغ، وأن السياق الاجتماعي مهم بقدر تأثيره على جهازنا العصبي فقط. عندما يخبرنا فيتجنشتين: «إن "العملية الداخلية" تفتقر إلى معايير خارجية»، فمن الجيد أن تذكر نفسك أن العمل الداخلي، مثل الشعور بالألم، يحدث كلية بسبب عمليات عصبية منطقية في المِهاد وفي القشرة الحسية الجسدية (Thalamus and the Somato Sensory Cortex). بإيجاز، فإن العملية الداخلية لا تفتقر إلى أي شيء. إنها توجد فحسْب(It just is).

نَبْذ فيتجنشتين للنظرية وإصراره على أن الفلسفة يجب أن تكون وصفية خالصة وليست نقدية، قاده إلى تبني نوع من الهراء (waffling) في بعض المجالات الحرجة. انظر مثلا إلى الخطاب الديني، أعتقدُ أن فيتجنشتين نفسه كان له تعطش ديني عميق بصورة واضحة. فلم يكن لديه موقف الطبقة الوسطى الأنجلو-أمريكية من الدين، أي عده مجرد شيء نشغل به صباح الأحد. وفي كتاباته الأشد خصوصية هناك إشارات متكررة إلى الله وإلى مشكلة جعل نفسه متوافقا معه. مع هذا، أعتقدُ أن معظم الناس الذين عرفوه سيقولون إنه

كان ملحدا. الآن، بطريقة ما، عندما تقرأ ملحوظاته عن الله، تشعر وكأنه يريد أن يكون مع الاتجاهين معا: يريد أن يتحدث عن الله ومع ذلك يظل ملحدا. هو يريد أن يؤكد أن فهم الخطاب الديني يتطلب منا فهم الدور الذي يلعبه في حياة الناس، وهذا حق، لكن، من الحق أيضا أنك لن تفهم الدور الذي يلعبه الدين في حياتهم إلا إذا صدّقت أن الخطاب الديني يحيل على ما هو خارج عنه. وبصراحة، عندما يصلي الناس العاديون فذلك لأنهم يعتقدون بوجود إله يسمعهم. لكن وجود هذا الإله من عدمه ليس هو نفسه جزء من اللعبة اللغوية. السبب الذي يجعل الناس يلعبون اللعبة اللغوية للدين هو اعتقادهم في وجود شيء خارج لعبة اللغة هو الذي يمنحها معنى. عليك أن تكون مثقفا دينيا متكلفا جدا (Very Recherché) لتستمر في الصلاة إذا كنت لا تعتقد في وجود إله حقيقي خارج اللغة يسمع صلواتك.

الكثير من الملحوظات السلبية. اسمح لي بقول ما أعده مثيرا جدا للإعجاب في عمل فيتجنشتين. معظم الفلاسفة المعاصرين المقدِّرين لفيتجنشتين سيقولون إن مساهماته الرائدة كانت في فلسفة اللغة وفلسفة العقل.

ففي فلسفة اللغة شَن، فيما أعتقدُ، تفنيدا مدمرا وقاطعا على الرأي القائل إن الكلمات تستمد معانيها، إما من الإشارة إلى الكائنات في العالم أو من الارتباط مع بعض عمليات الاستبطان في العقل. كما عبّر بقوة عن الرأي القائل إن تكلم اللغة يجب أن يُنظر إليه بوصفه شكلا من أشكال النشاط البشري، وأن الكلمات هي أفعال أيضا. وعلى الرغم من أنه ليس هو الفيلسوف الوحيد الذي أكد هذا، لكنه بالتأكيد واحد من أكثرهم قوة وتأثيرا. وهذا ينطوي على قطيعة مهمة مع التقاليد الفلسفية واللغوية، ونحن لا زلنا نُحصِّل نتائج هذه القطيعة.

إسهاماته في فلسفة العقل لها القدر نفسه من الأهمية. فقد شن واحدة من أكثر الهجمات فعالية ضد التقليد الديكارتي؛ أي ضد فكرة أن الحياة تتكون من جزأين: جزء عقلي وآخر جسدي. لكن هجومه على الديكارتية، فيما أعتقد، قوي جدا تحديدا لأنه لم يرتكب نفس خطأ معظم المعادين للديكارتية، وهو الاعتقاد أن رفض الثنائية (Dualism) يوجب رفض الظواهر العقلية. معظم المعادين للديكارتية يعتقدون أن رفض الثنائية سيُلزمهم قبول ضرب من السلوكية أو نوع من المادية الفجة (Crude Materialism). فلسفة العقل عند فيتجنشتين هي نتاج اختبارات حذرة لاستعمال الكلمات الموظفة في وصف الظواهر العقلية، ففي عمله المتأخر يمضي لِمئات (بالمعنى الحرفي) من الفقرات في مناقشة كيفية استعمالنا للأفعال النفسية مثل: «عَنى» و«عَرف» و«رأى» و«تَوقّع» و«خاف» و«شَك» و«تأمَل» وغيرها الكثير، ويُظهر بشيء من التفصيل أنه إذا فحصتَ «النحو العميق» (Depth Grammar) لهذه المفردات فلن تجد ظاهرتين منفصلتين: عقلية وجسدية. النحو السطحي، حيث نملك أسماء مثل «عقل» و«جسم» أو «روح» و«مادة»، يجعل الأمر يبدو كما لو كان هناك تدخل لنوعين من الظواهر؛ لكن فحص النحو العميق يبين أن استعمال المفردات متأصل

في الوضعيات المعيشة. عندما نقول شيئا من قبيل: «لقد كان يئن، وهو يتألم منذ ساعتين»؛ فنحن لا نشعر أن لدينا فئات مختلطة، أن الأنين الجسدي ينبغي ألّا يُجمع مع الألم الذهني. من وجهة نظر فيتجنشتين طريقتنا الاعتيادية في الحديث، إذا فهمت فهما صحيحا فهي لا تؤدي إلى الديكارتية.

إلى الآن، أعتقد أنني ربما وافقت العقيدة الفلسفية الراهنة في قولها إن المساهمات الرئيسة لفيتجنشتين هي في فلسفة العقل وفلسفة اللغة. لكن، الرأي عندي هو أن الجزء الأقوى من عمل فيتجنشتين هو ذاك الذي طوره بدرجة أكثر اكتمالا في كتابه الأخير: **في اليقين**[20] (On Certainty)، وإن كانت الفكرة الواردة في الكتاب تظهر، في صيغة أولية على الأقل، في **التحقيقات الفلسفية**. وهذه الفكرة هي أن لدينا تقليدا طويلا في الفلسفة الغربية، يرجع إلى أفلاطون، يرى أن كل أنشطتنا التي لها معنى لابد أن تكون نتيجة لبعض النظريات الداخلية. على سبيل المثال، إذا استطعتُ فهم سلوكك فذلك يرجع حصرا إلى كوني أحمل نظرية ضمنية، لا شعورية ولا شك، حولك وحول سلوكك؛ إذا فهمتُ لغة ما، فذلك فقط لأنني متمكن من نظرية في اللغة. من الواضح الآن أن هناك بعض الحقيقة في هذا الرأي التقليدي. لكن، فيتجنشتين يشير إلى أن قدرا كبير من سلوكنا نحن نفعله فحسْب، فلسنا بحاجة إلى نظرية داخلية من أجل التصرف بالطريقة التي نتصرف بها في الواقع. وكالمعتاد، قدم تشبيهات باهرة وزاهية لوصف هذه الظاهرة. على سبيل المثال، يسألنا ما إذا كانت السناجب حين تخزن المكسرات لفصل الشتاء تفعل ذلك اعتقادا منها أنها حلت مشكلة هيوم في الاستقراء. أي، هل تفعل ذلك لأنها تعتقد أن لديها أسبابا جيدة لافتراض أن المستقبل سيكون مثل الماضي؟ لا، إنها تفعل ذلك فحسب. أو يقول: فكر في نفسك وتخيل وضع يدك في النار، هل سبب عدم وضع يدك فيها هو اعتقادك بدحض هيوم، أو اعتقادك أن لديك أدلة استقرائية جيدة جدا عن النتائج؟ مرة أخرى، أنت لا تفعل ذلك فحسب، فلا يمكنك أن تلقى في ذلك الحريق؛ وهذا ليس لأن لديك نظرية ما، بل لأنك تعلمت أن تتصرف بطرق معينة. فيتجنشتين يحثنا على أن نتذكر أن قدرا كبيرا مما نقوم به يجب أن يُنظر إليه على أنه بدائي بيولوجيا وثقافيا. نحن نعمل فحسْب بطرق معينة. يجب أن نفكر في هذه الضروب من السلوك بوصفها ردود فعل حيوانية لا أكثر.

الآن، في عملي الخاص أدعو هذه المجموعة من القدرات من التنويعات غير النظرية وغير التمثيلية التي لدينا بـ «الخلفية» (The Background). يبدو لي أن حياتنا العقلية كاملة، الشعورية وغير الشعورية، تمضي، حقيقة، ضد خلفية من هذه القدرات العقلية والتصرفات غير التمثيلية وغير النظرية.

20 نشر هذا الكتاب سنة (1969) بعد وفاة فيتجنشتين من طرف طالبته إليزابيث أنسكومب (وآخرون) التي جمعت فيه ملحوظاته الأخيرة.

قد يبدو أن ما أطري عليه فيتجنشتين الآن، أي تَعرُف مجموعة من القدرات الخلفية غير النظرية، لا ينسجم مع ما كنت أثلبه عليه سابقا، أي مقاومته لتطوير نظرية. لكن فعلي ليس متناقضا حقا؛ فالادعاء بأننا في كثير من الأحيان في الحياة الواقعية نمضي قدما دون أي نظرية، هو في حد ذاته ادعاء نظري. لذا، شكواي من كون فيتجنشتين يفرط في مقاومة التنظير ينبغي ألّا يُخلط بينها وبين الفكرة المستقلة التي أدركها إدراكا صحيحا، وهي أن قسما كبيرا من سلوكنا نحن نمضي فيه قدما دون الاستفادة من نظرية ما، فنحن نفعل فحسْب.

ماجي: هل تعتقد أن فيتجنشتين غادر شيئا يمكن كسبه من تطبيق أفكاره، أم أنه هو نفسه قد استنفد هذه الأفكار حتى الثُمالة؟

سيرل: لا، أعتقد أنه ما يزال هناك الكثير مما ينبغي أن يقال. لنقلها صراحة، فيتجنشتين، فيما أعتقد، لم يخدش إلا السطح فقط. هذا عصر مثير جدا لتكون فيه فيلسوفا، ربما أكثر الأوقات إثارة في تاريخ الفلسفة. وفيتجنشتين، أحيانا على الرغم منه هو نفسه، مسؤول إلى حد كبير عن الآفاق التي فُتحت.

لكن، هناك على الأقل بعض السخرية في هذا، لأنه يبدو لي أن فيتجنشتين لم يُفهم فهما صحيحا في الفلسفة. أعتقد لو أن فيتجنشتين فُهم فهما صحيحا واستوعبه التقليد الفلسفي، لاستُبعد كثير مما يُجاز في الفلسفة الأكاديمية المعاصرة وعُد خاطئا كلية.

أرأيت، نحن نتحدث عن فيتجنشتين هنا كما لو كان عبقرية تعترف بها الفلسفة المعاصرة، وهذا صحيح إلى حد ما، لكن سيكون أكثر دقة أن نقول إنه ببساطة قد أصبح موضة متجاوزة (Out of fashion) في الفلسفة. ويبدو لي أن ما حدث هو أن فيتجنشتين قد بَعث بعض الانفجارات المكتومة، التقطتها أجهزة الإنذار الفلسفية البعيدة، مما دفع الناس إلى التفكير في أن هناك شيئا مهما جدا يحدث. لبعض الوقت، لاسيما في الخمسينيات وأوائل الستينيات، كان هناك الكثير من الجلبة للرد على فيتجنشتين؛ لكن، في الآونة الأخيرة يبدو لي أن الناس قد طمأنوا أنفسهم بالاعتقاد أنه قد تُكفل به واستُوعب، وأن بإمكانهم الآن العودة إلى أعمالهم المعتادة. لذلك لي ردان على هذا، أولا، يبدو لي أننا لم نفهم حقا فيتجنشتين فهما صحيحا، ثانيا، أنه لم يكمل العمل، لقد بدأ للتو ▪

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
www.mominoun.com للدراسات والأبحاث

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569
الهاتف : +212 537 77 99 54
الفاكس : +212 537 77 88 27

info@mominoun.com
www.mominoun.com